في سبيل الإصلاح

تأليف
علي الطنطاوي

دار المنارة للنشر والتوزيع

ⓒ دار المنارة للنشر والتوزيع، ١٤١٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الطنطاوي، علي
في سبيل الإصلاح - ط ٤ - جدة.
... ص؛ .. سم
ردمك ٢ - ٠٩ - ٨٢٠ - ٩٩٦٠
١ - الإسلام - مقالات ومحاضرات ٢ - الوعظ والإرشاد ٣ - العلوم الاجتماعية - مقالات ومحاضرات أ - العنوان
ديوي ٠٨١،٥٣١ ١٦/٢٥٥٥
رقم الإيداع: ١٦/٢٥٥٥
ردمك: ٢ - ٠٩ - ٨٢٠ - ٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة
يمنع النقل والترجمة والاقتباس للإذاعة والمسرح
إلا بإذن خطي من المؤلف

الطبعة الأولى ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م
الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٧ م
الطبعة الثالثة ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م
الطبعة الرابعة ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ م

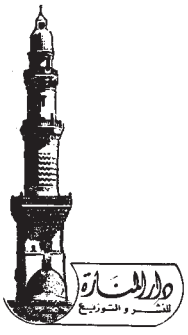

هاتف: ٦٦٠٣٦٥٢ - فاكس: ٦٦٠٣٢٣٨ - المستودع: ٦٦٧٥٨٦٤
جدة ٢١٤٣١ - ص.ب: ١٢٥٠ - المملكة العربية السعودية

في سبيل الإصلاح

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك، اللهم إني أسألك أن تنفع به، وأن تثيبني عليه، وصل اللهم على سيّدنا محمد معلّم الخير وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله أقدم الطبعة الثالثة من كتاب (في سبيل الإصلاح) سائلا الله أن يجعل كل ما أكتب في سبيل الإصلاح، وفي طاعة الله وابتغاء ثوابه، لي وللناشر وللقراء وأن ينفعهم به ويلهمهم دعوة صالحة يدعو لي بظهر الغيب

مكة المكرمة: غرة رمضان ١٤١٠

علي الطنطاوي

مقدمة الطبعة الثانية

السطور الأولى من هذه المقدمة كتبت في (مكتبة القدسي) في سوق الحميدية في دمشق، ووضعت في صدر الطبعة الأولى من رسائل (في سبيل الإصلاح) التي صدرت سنة ١٣٤٨هـ، وتتمتها أكتبها الآن في دار صهري ــ زوج بنتي ــ الأستاذ زياد الطباع في جدة سنة ١٤٠٧هـ، لأضعها في أول هذه الطبعة من كتابي (في سبيل الإصلاح). وبينهما مدى واسع في المكان هو بُعد ما بين دمشق وتهامة الحجاز، وبينهما مدى في الزمان مقداره تسع وخمسون سنة.

زمان طويل طويل، تبدل فيه كل شيء يقبل التبديل: غاب العالم الذي عرف صباي وتبدلت معالمه ومضى أكثر أهله، الناس الذين كانوا هم ناسي، وكانوا أهلي وصحبتي، لم يبق في كل ألف منهم بضعة آحاد يعدون على الأصابع. فلا البلد اليوم هو البلد، ولا أهله هم الأهل، ولا العادات والأوضاع هي العادات والأوضاع، حتى لو أنَّ اللَّه بعث جدي الشيخ أحمد الذي مات سنة ١٣٣٢ هـ، لما عرف من دمشق إلا جامع التوبة والجامع الأموي وجبل قاسيون، حتى الجبل الذي خلَّفه عارياً أجرد، لن يميزه اليوم وقد لَبِس الشوارع والبيوت فسترت شعابه وغطت ترابه، بل لن يعرف في هذا الشيخ الذي جاوز الثمانين حفيده الذي تركه ولم يتعد الخمس السنين[1] ولو أنه بعث ووصف ما رآه وما أحسَّ به في كتاب، لجاء أطرف من (حديث عيسى بن هشام)، وقصة (حاجي بابا في انكلترا) التي نشر الزيات ترجمتها في مجلة (الرواية) من قديم.

---

(١) كذا يقال وأفصح منه أن نقول: خمس السنين.

لأن هذا التبدل الذي تمَّ في ثلاثة أرباع القرن التي عشتها لا يقع مثله في ثلاثة قرون.

والمجتمعات (تتطور) دائماً، ولكن (تطورها) إن أسرع يمشي مشية الخيل التي بالغ الشاعر مبالغة جاوزت حد المعقول حين وصفها فقال:

وأجل علم البرق عنها أنها مرت بجانحتيه وهي ظنون

فصارت هذه المبالغة حقيقة، وغير المعقول معقولاً واقعاً، وصرنا ونحن في مكة نسمع الخطيب يخطب في أميركا قبل أن يسمعه من هو قاعد أمامه في النادي، لا مجازاً بل حقيقة لأن الصوت يصل إلى من في النادي من طريق الهواء، ويبلغنا بالموجات الكهرطيسية (أي الكهربائية المغناطيسية)، ولو صرخ النذير من فوق الجبل يحذرنا طيارة معادية قادمة علينا لوصلت الطيارة قبل أن نسمع الصوت، لأنَّ من الطيارات ما هو أسرع من الصوت، وإذا كان الشاعر قد مدح بطلاً بأنه (ينظم فارسين بطعنة) أو أنه يقتل من الأعداء مئة في غارة، فلقد رأينا غارة من المتمدنين أهل الحضارة، تقتل مئة ألف في هيروشيما في لحظة واحدة، جلهم من غير المحاربين وإنما هم من الأطفال والنساء والشيوخ العاجزين.

جدّ جديد في العلم لو خُبِّر به أعلم علماء الطبيعة من مئة وخمسين سنة لجنّ أو لحسب المُخبِر مجنوناً: صرنا نسمع المغنّي يغنّي لنا، وقد مات واستحال جسدُه إلى رفات.

كان الشعراء يصفون القمر، ويشبهون به الغيد الحسان فوصلنا إلى القمر ووطئناه بنعالنا، وإذا هو كالأرض: صخر ورمل وتراب.

* * *

وهذه كلها آيات لمن كان له قلب، ومن كان يفكر فيما يرى وما يسمع، آيات وشواهد تقوي الإيمان في القلب المؤمن، أما من كان كالأنعام همُّه الطعام والشراب والزواج فيمر عليها وهو غافل عنها، يقف عند الصنعة وينسى

الصانع، يقول: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ وينسى قول الله: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾. ملء كوب من ماء البحر فما الكوب من البحر.

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾: علمنا قوانين الله التي وضعها للجاذبية، ولكن هل عرفنا ما الجاذبية؟ ما حقيقتها؟ وعرفنا الكهرباء، وكثيراً من سنن الله فيها وجعلنا لها علماً، وألّفنا فيها كتباً، وفتحنا لها في الجامعة أقساماً، وأقمنا لهذه الأقسام أساتذةً، ولكن هل عرفنا ما هي حقيقة الكهرباء؟

ودرسنا المخَّ وخلاياه وأقسامه، ولكن هل عرفنا ما علاقة المخ بالفكر؟ لقد نبذنا المقالة الحمقاء التي قالها بعض الماديين في القرن التاسع عشر (هيكل أو استرنر): أن المخ (يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء) منذ قضى (هنري بركسون) وصحبه على هذا المذهب، ولكنا بقينا على جهلنا بعلاقة المخ بالتفكير، وأكثر منه جهلنا بعلاقة القلب بالإيمان والعواطف، وهل المراد بالقلوب (التي في الصدور) هذا العضو الذي لم نعرف عنه إلا أنه مضخة للدم، ولا نتساءل لم تسرع ضرباته عند الغضب، وتبطىء عند الحزن، فيحمر الوجه أو يصفر، وتظهر عليه تلك الأعراض إن لم يكن إلا مضخة تضخُّ الدم؟

أم المراد بالقلب شيء آخر، لم نعرفه بعد، واننا حين نقول (القلب) نريد به اللب. كما نميز في الفاكهة قشرتها من لبها ولونها وشكلها، اللذين لا يدلان على العناصر التي تتألف منها، ولا على ما أودع من النفع والضر فيها.

إن اختلت خلايا المخ اضطرب التفكير، كما ينقطع تيار الكهرباء إن انقطعت الأسلاك، ويبطل عمل الرائي (التلفزيون) إن نقص شيء من أجزاء الجهاز. ولكن هل الأسلاك والمصابيح هي الكهرباء؟ إنَّ الذي يعرفه الأطباء عن الدماغ كالذي يعرفه (مصلح التلفزيون) عن جهازه، يكمل نقصه، أو يقوم اعوجاجه ولكن ما أثر ذلك فيما يعرض فيه من ندوات ومسلسلات، وما فيها من الخير أو من الشر؟

إن هذه الكشوف العلمية، وهذه المخترعات الحضارية تقوي الإيمان عند

من في قلبه إيمان، كما تشحن الذاخرة (أي البطارية) بالكهرباء إن كان لا يزال فيها بقية من كهرباء.

لقد كان في قريش عقلاء، وكان فيهم أولو نهى، ولكن لما قال لهم رسول الله ﷺ: أنه ذهب إلى القدس ورجع من ليلته لم يستطع أكثرهم أن يصدق، وكاد يتزعزع إيمان بعض من قد آمن، ولو أنت قلت اليوم لأقل الناس علماً وأكثرهم جهلاً: لقد ذهبت أمس من جدة إلى عمان ورجعت، لما عجب، ولما رأى في ذلك شيئاً يتعجب منه.

إني حين أفكر فيما كانت عليه الدنيا وأنا في صدر حياتي ومطلع صباي، وما هي عليه الآن أحسُّ كأني صعدت إلى رأس المئذنة ووقفت عند الهلال، لا أستند إلى شيء، أنظر من تحتي إلى ما حولي فأحسُّ أنَّ الدنيا تدور بي، حتى أكاد أسقط على رأسي.

لقد كان تبدلاً يكبر عن التصديق، ولكن هل كان خيراً كله؟ الجواب: لا. هل كان شراً كله؟ الجواب: لا. إن فيه خيراً من الواجب علينا أن نتمسك به، وفساداً علينا أن نصلحه، ومن هنا حاولت، وأنا أكتب وأؤلف وأخطب وأحاضر (من ستين سنة) أن أجعل حظاً من عملي هذا في سبيل الله ثم (في سبيل الإصلاح).

فكيف نسلك هذا السبيل؟

إن ما وصلنا إليه فيه الطيب وفيه الخبيث، فكيف نميز الخبيث من الطيب؟

وإن ذلك كله يتبدل ويتغير، فأين الثابت الذي لا يعتريه تغيير ولا تبديل لنتخذه مقياساً يكون به هذا التميز؟ أين الطيب الذي لا خبيث فيه، والحق الذي لا باطل معه؟

الجواب واضح بيّن لمن أعمل فيه فكره، وكان فكره مجرداً عن الهوى.

هو أن البشر يخطئون ويصيبون، فلنرجع إلى من لا يخطىء أبداً، والذي